الحياة الطيّبة
السنة ١٤
العدد ٢٣
خريف ٢٠١١ م
أبحاث ودراسات

الإسلام والتربية والتعليم

liver Leama[1]

ترجمة وتعليق: مجلة الحياة الطيبة

مدخل:

إنّ النقطة الأساس في فلسفة التربية والتعليم الإسلامي هي العلاقة بين العلوم الدينية والعلوم غير الدينية. وهذا الأمر له تأثير مهمّ على طريقة نقل العلم، وكذلك على محتواه. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: أنّه إذا كان الإسلام يطرح الحقائق كما هي في الواقع، فما هو الهدف -إذاً- من تعلّم العلوم غير الدينية؟

والظاهر أنّنا لا نحتاج إلى التمسّك بمصادر معتبرة، غير ما ورد في المصادر الإسلامية؛ فطريق نقل العلم إلى المخاطبين هو طريق نقل الحقيقة الدينية.

إنّ مثل هذه الفروض يمكن أن تكون مضلّلة للإنسان. ولكي نعرف لماذا اعتقد البعض بمثل هذه الفروض، لا بدّ أن نلتفت إلى بعض الجوانب الكيفية في انتشار العلم والتربية في العالم الإسلامي.

وعندها سوف يتّضح أنّ حقيقة العلاقة بين التربية والتعليم، والدين والعلوم التربوية في العالم الإسلامي أعقد بكثير ممّا يبدو في الوهلة الأولى؛ فهناك مصادر عدّة أساسية في العلوم الإسلامية يمكن أن يرجع إليها المسلمون،

(١) Philophy of Education And Encyclopedia, Oliver .lenam Editor J.L.Chambliss, Garland Publishing, Inc .New York and London,1996

لكن لا يوجد رأي موحّد تتّفق عليه جميع المذاهب الإسلامية بالنسبة إلى هذه المصادر؛ فالحقيقة الدينية في رأي غالبية أهل السنّة تبتني على ثلاثة محاور: القرآن، أقوال الرسولﷺ (الحديث)، وإجماع الأمّة التي غالباً ما تأتي في إطار فقهي (الشريعة).

ويستبدل دور الإجماع والاتفاق العامّ عند الشيعة الإمامية بالاعتقاد بأنّ هناك شخصاً منصوباً من قبل الله تعالى؛ ولهذا السبب اختلفت الأحكام الفقهية والأحاديث عند الشيعة عنها عند أهل السنّة، لكنّهم اتفقوا على المكانة الاستثنائية للقرآن الكريم، وعلى أنّ النبيﷺ هو آخر من نزل عليه الوحي من الأنبياء عليهم السلام.

إنّ التوافق بين المتطلّبات الاعتقادية لكل دين والمشاكل العملية في الحياة ليس أمراً سهلاً؛ لهذا السبب من الضروري تفسير القوانين الدينية؛ بهدف وضع قواعد سلوكية تناسب المجتمعات المعاصرة، التي تختلف كثيراً عن مجتمع نزول القرآن.

دواعي النهضة العلمية في المجتمع الإسلامي:

يُعدّ الانتشار الواسع للمسلمين سبباً في هيمنتهم على بعض الطوائف الأخرى، مثل: المسيحيين، اليهود، الفرس، والأقوام الذين نالوا تطوّراً ملحوظاً في إطار الثقافة اليونانية؛ ما جعل المسلمين ينالون كمّاً هائلاً من العلوم الدينية وغير الدينية، التي قد تشجّع على تهديد الآخرين بمرور الزمن، واعتبروا العمل على كسب الآخرين وإقناعهم بالإسلام أمراً ضرورياً وعملاً مرغوباً. ومن جانب آخر، فإنّ أغلب المعارضين كانت لديهم استدلالات قوية في الدفاع عن آرائهم الدينية أيضاً.

موقف المسلمين تجاه العلوم الدخيلة:

كان من الضروري للعالم الإسلامي أن يتّخذ موقفاً ما بالنسبة إلى قبوله مجموعة من العلوم: (التنجيم، الطب، الفلسفة، الرياضيات)، التي كانت

منتشرة في العالم في ذلك الوقت؛ فإذا كان غير المعتقدين بالإسلام يختصّون بعلوم هي أوسع بكثير ممّا هي عليه في العالم الإسلامي، فعلى أيّ أساس يدّعي المسلمون في مقابل أفضلية الإسلام على غيره؟ وما هي المواقف التي يجب أن يتّخذها المسلمون تجاه المجموعات المخالفة والمؤهّلة علمياً؟ وعلى هذا الأساس بدأ الصراع بين العلوم الإسلامية والعلوم التقليدية الموروثة من الفكر اليوناني، علماً بأنّ العلوم الإسلامية لم تكن دينية بحتة، بل كانت تشمل الأدب العربي والقانون.

إنّ دراسة أمور من هذا القبيل على ضوء الرؤية الإسلامية في بعض بقاع العالم كان أمراً واضحاً وبديهياً. وبالرغم من ذلك؛ فقد كان المسلمون يسعون للاستفادة من مزايا سائر العلوم التي نشأت في بيئة ومجتمع ديني يختلف بصورة كاملة عن المجتمع الإسلامي، مع العلم بأنّ الذين نقلوا هذه العلوم لم يكونوا من المسلمين، بل كانوا في الغالب من المسيحيين؛ فقد ترجموا الكثير من الكتب اليونانية للسريانية، ثمّ إلى العربية.

ومن المسلمين من يستدلّ على عدم الحاجة إلى تعلّم العلوم غير الإسلامية، بل إنّها لا تستحقّ التعلّم، ولا بدّ من الاجتناب عنها، وإنّها ليست مفيدة في نظرهم، وليس هذا فحسب، بل قد تكون مضرّة، ومؤدّية إلى ضعف الشعور الديني، وانتشار العقائد المخالفة. وهناك من ذهب إلى خلاف هذا الرأي، وأنكر وجود أيّ دليل إسلامي على هذا الرأي؛ وأنّ العقائد والفنون غير الإسلامية لا يجب أن تكون عامل قلق، بل إنّه يمكن الاستفادة من مزايا هذه العلوم والفنون في حياتنا.

إنّ هذه الرؤية الازدواجية المتشدّدة لها أشكال ووجوه مختلفة. فقد كانت هناك آراء متفاوتة بالنسبة إلى كيفية التعامل مع المسائل الخارجة عن الإسلام، فهناك من يرفض كلّ ما هو خارج عن الإسلام، وهناك من يقبله، وقد كانت هذه المباحث مطروحة منذ ظهور الإسلام، ولا تزال إلى عصرنا هذا، وسوف نتطرّق إلى بعض أدلّتها لاحقاً، فهذه المباحث تبيّن لنا المناحي والقوالب التي تتشكّل في ضوئها التربية والتعليم الإسلاميّان.

انعكاسات العلوم الإسلامية في ميدان التربية والتعليم:

تعتبر علوم الفقه والكلام من الجوانب الأساسيّة في التربية الإسلامية، والفارق الماهوي بين هذين العلمين ينشأ من مواقف المؤيّدين لكلّ منهما بالنسبة إلى العلم (الوقتي) في معناه العامّ، فعلى سبيل المثال هناك جدال مستمرّ في القانون (الفقه) حول جواز استخدام القياس؛ فإلى أيّ مدى يستطيع الفقيه أن يستخدم نموذجاً خاصّاً من عمل معيّن يبتني على أصل ديني محكم، للحصول على موارد مشابهة متمسّكاً بأصل القياس؟

إنّ المشكلة التي تواجه الفقهاء نتيجة استخدام القياس، هي أنّ هذا الأصل يفتح باب الآراء الشخصية، ويؤدّي إلى اتّساع القانون إلى ما لا نهاية، وكلتا هاتين المشكلتين لهما توابع وآثار خطيرة؛ فالقياس يستطيع أن يبرز قدرة المقنّن في طرح الأقيسة المقنعة فقط، لكنّ هذا النوع من القوانين (الشرعية) لا يمتّ إلى الإسلام إلا بصلة ضعيفة. أمّا الذين يدافعون عن استخدام القياس، فيستدلّون على أنّه يمكن بواسطة الاحتياجات المناسبة تعميم نطاق المباحات الشرعية الضيّقة إلى نطاق واسع عن طريق القياس، مع الأخذ بنظر الاعتبار بعض الاحتياطات المناسبة، وفي هذه الصورة يمكن للفقيه أن يقبل بالانطباق المستمرّ للإسلام بواسطة هذه التعميمات، وهذه النقطة تأتي في مقابل استخدام الدليل العقلي؛ لتأسيس القوانين الشرعية.

وقد حدث جدال كثير بين المدرستين الكلاميتين (المعتزلة والأشعرية) في هذه النقطة. والفارق الأساس بين هاتين الفرقتين هو في درجة الأهمّيّة التي يعطونها لاستخدام الدليل والحجّة؛ فبحسب المعتزلة ـ مثلاً ـ ، توجّه الاعتقادات الإسلامية على أساس معقوليّتها، في حين يكون العمل صحيحاً في رأي الأشاعرة إذا اعتبره الشارع وحكم به؛ ولهذا، فهناك من يطلق على المعتزلة العقليين، وعلى الأشاعرة السلفيين، في حين أنّ هذا المعيار للتفكيك بين الاثنين سطحي جدّاً؛ فالأشاعرة يستخدمون الدليل

العقلي أيضاً، في جوانب معيّنة من الدين، التي يمكن للعقل أن يتوصّل إليها. أمّا المعتزلة، فيذهبون إلى سعة الجانب العقلي في الدين إلى درجة يمكن إثبات عقلانية الدين عن طريق الدليل العقلي المستقلّ، وقد تمسّكوا بآيات قرآنية عدّة، كالآيات التي توصي المسلمين بالحوار والمجادلة بالتي هي أحسن مع غير المسلمين؛ من أجل هدايتهم. ومن الطبيعي أنّ الحوار يمكن أن يعطي نتائج إيجابية في ما إذا كان بمستوى من العقلانية تفوق الاختلافات المذهبية.

الإسلام ومبدأ العقلانية:

إنّ الإسلام غالباً ما يعكس صورة العقلانية عن نفسه؛ لأنّه بصدد كسب غير المعتقدين به وهدايتهم؛ فالقرآن الكريم يشير إلى أنّ كمال الشخصية الإسلامية هي في كونها منطقية، وقد ذُكِرَت في القرآن الأنواع المختلفة من التجارب الدينية، وطرق دعوة الناس إلى الإسلام، علماً، أنّ الأشاعرة يهتمّون باستخدام العقل أيضاً، لكن في الحدود الشرعية، فهم يعتقدون بأنّه لا يمكن تبرير الإيمان عن طريق العقل والاستدلال فقط.

والجدير بالذكر أنّ هذه المسائل الكلامية ليس لها دلالات تربوية في الواقع؛ لأنّ البحث لا ينصبّ في دائرة استخدام العقل، بل هو في طريقة وصف هذا الاستخدام، فعلى سبيل المثال: إنّ كلا الفريقين يعطيان قيمة فائقة للعقل والتحقيق العلمي، لكنّ الأشاعرة لا يعتقدون بالارتباط العلّي والمعلولي بين الأشياء مستقلاً عن إرادة الله –سبحانه وتعالى–، فإذا ما قبلنا بأنّ جميع الروابط والعلاقات هي نتاج القدرة الملكوتية والسماوية، ففي ذلك الحين نستطيع التحدّث عن أصل العلّية والقوانين الطبيعية؛ لأنّ هذا هو الطريق الوحيد غير المباشر للحديث عن أعمال الله –سبحانه وتعالى– وأفعاله.

كما تجدر الإشارة إلى أنّنا عندما نستخدم اللغة العلمية لتفسير العالم من حولنا، وفي الوقت نفسه نكون ملتفتين لما هو مبيّت في باطن ذلك

الكلام، وأنّ كلّ تعليم وتربية لا بدّ أن يُلتفت فيهما إلى إظهار قدرة الله (Manifes) -سبحانه وتعالى- وراء العلم الطبيعي. تتوقّفنا نقطة ملفتة للنظر مفادها: أنّ الأشاعرة سحبوا الحوار إلى عالم الكلام الإسلامي، واستنتجوا أنّ كلّ تربية وتعليم علمية؛ في ما إذا أرادت أن تُحظى بصفة الكمال، يجب أن تشتمل على جوانب من الرؤية الدينية. ومن البديهي أنّ هذا النوع من التربية والتعليم له بناء يختلف عن سائر أنواع التربية والتعليم الموجودة في الثقافات الأخرى.

مناسبة التربية والتعليم للبيئة الاجتماعية:

إنّ الأنواع المختلفة من التربية والتعليم لا بدّ من أن تتناسب مع تنوّع الناس واختلافهم. وقد كان هذا الموضوع مثار بحث في تاريخ الثقافة الإسلامية؛ فبعض المسلمين لا يرغبون بالأفكار النظرية، وهناك من ليست له الفرصة الكافية للتأمّل في مثل هذه الأفكار؛ بسبب مشاكل الحياة اليومية؛ لذا، فإنّ تربية هذا القسم من الأفراد وتعليمهم - وهم يشكّلون القسم الأكبر من المجتمع -، لا بدّ من أن يهيّأهم ذلك لأداء دور مناسب في المجتمع ليس أكثر من هذا، وأنّ التمادي أكثر من ذلك يؤدّي إلى ظهور أسئلة لا يمكن تقديم الجواب عنها بصورة كاملة، وبالنتيجة يهدّد إيمان أفراد المجتمع وانسجامهم.

لقد استخدم المفكّرون الإسلاميون في الغالب المفاهيم الأرسطية القائلة بالأشكال المتفاوتة للتفكير؛ من أجل تبيين اختلاف الأفكار (اختلاف الناس من حيث درجة التفكير)، حيث إنّ عامّة الناس - في الغالب -، يميلون إلى اللغة البلاغية والشعرية والإقناعية، وإحدى الخصائص المهمّة في القرآن الكريم تكمن في استطاعته استخدام هذه القوالب اللغوية في نقل خطابه إلى أكثر الناس؛ وإن كان إبراز الحقائق عن هذا الطريق أضعف منطقياً ممّا هو عليه في حالة الاستدلال؛ ولا بدّ من الالتفات إلى أنّ أكثر المخاطبين غير قادرين على

فهم اللغة الاستدلالية والبرهانية، وعلى هذا الأساس كانوا يخاطبون بما يتناسب مع قابليّاتهم ورغباتهم[١].

إنّ الطرق والأشكال الأكثر تعقيداً في الخطاب تستخدم للأشخاص من ذوي القابليّات الخاصّة، والاستعدادات العقلية المتميّزة، كالحقوقيين[٢]، والإلهيين[٣]، والنحويين، وعادة ما يكون هؤلاء من أصحاب المهارة في استخدام التفكير الجدلي، الذي يبدأ من الفروض والمقدّمات المقبولة من الأصول الموضوعة التي يمكن من خلالها الحصول على نتائج معتبرة.

كما إنّ استخدام طرق خاطئة في الاستدلال من قِبَل جماعات خاصّة لها ثمرة على صعيد الحكم والنتيجة فقط، لكنّ هذا الأمر له تبعات خطيرة على المدى البعيد، فقد يؤدّي إلى بروز الشكّ في إيمان الناس، أو في إيمان الآخرين بالإسلام، بل حتى في قيمة التربية والتعليم، والظاهر أنّ هذا الاتّجاه في التربية والتعليم هو اتّجاه نخبوي، ويمكن للناظر بسهولة أن يرى أفكار جمهورية أفلاطون في فلسفته.

(١) إذا كان مراد الكاتب من اللغة الإقناعية والشعرية هو نوع من الإقناع عن طريق استغلال أحاسيس المخاطبين وعواطفهم، فمن الطبيعي أن هذا الوصف بعيد جداً عن أسلوب القرآن الكريم، وليس من شأنه، وهذا يكشف عن جهل الكاتب بثقافة القرآن الكريم الكلامية؛ فالقرآن الكريم عندما يتكلم بلغة بسيطة لا يريد أن يخرج الأفراد من ذوي المنطق والاستدلال من دائرة الخطاب، بل إنّ كلّ فرد يمكنه أن يستفيد من القرآن حسب مستوى فهمه وإدراكه؛ فالأشخاص الذين هم في مستويات أدنى في الفهم يستطيعون الاستفادة من ظواهر الآيات، والذين هم في مستويات أعلى يمكنهم الاستفادة من باطنه، وهذه الخصوصية جعلت القرآن الكريم يتّصف بصفة السهل الممتنع، وأنّ له القابلية من أن يستفيد منه جميع البشر في جميع الأزمنة، وهذا هو سرّ إعجاز القرآن الكريم، فالقرآن الكريم ممزوج بعناصر التشويق الكلامي(الفكرية، العاطفية، والبلاغية،....) المؤثّرة في وجود الإنسان، يقول الله -سبحانه وتعالى- ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَكر**﴾(القمر: ١٧)، بحيث يكون الوصول إلى محتوى القرآن، والوصول للهداية أمراً سهلاً، ومن جانب آخر، فإنّ سرّ خلود القرآن الكريم يكمن في تطابقه مع فطرة الإنسان واحتياجاته، ولهذا السبب فإنّ شمول هذا الخطاب يستلزم عدم التركيز على وجه خطابي خاص (استدلالي صرف)، فقد ركّز القرآن الكريم على الجانب العامّ والشامل للفطرة البشرية؛ لتفاوت الناس في الفهم والإدراك واختلاف الثقافات. كما تجدر الإشارة إلى أنّ القرآن يهدي بالقلب والعقل معاً ويقدّم الحقائق بطريقة تؤثّر في النفس البشرية، فهو لا يهمل احساس والانفعال، ولكن ذلك يكون معنياً للدليل العقلي والفطري الموجود فيه، والمُقدَّم بتلك اللغة السهلة.

(٢) الفقهاء.

(٣) المتكلمين.

وأساس هذا المنحى هو الاعتقاد باختلاف الأفراد بعضهم عن بعضهم الآخر، وفي الواقع إنّنا كلّما قمنا بتربية أحد الأشخاص بطريقة تختلف عن الآخر، نكون قد حقّقنا عملاً موزوناً وحكيماً [١].

تداعيات الخطاب التربوي والتعليمي المعقّد:

إنّ الأشخاص الذين لا يستطيعون أن يفهموا تعقيدات علم الكلام - حينما يطّلعون عليها - ربّما يشعرون بأنّ إيمانهم مهدّد؛ لأنّهم لا يفهمون كيف يجمع الإلهيون بين هذه الأمور وبين الإيمان، فيقعون في أسر الشكوك والشبهات بالنسبة إلى دينهم وإيمانهم، وهذه هي إحدى المشاكل الأساسية للفلاسفة، فبالرغم من أنّهم ملتزمون بالإسلام ومنقادون له، لكنّ الناس حينما يطّلعون على آرائهم الفلسفية يقعون في شكّ وحيرة.

إنّ الجمع بين الدين والفلسفة أمر ممكن في نظر الفلاسفة، وهم وحدهم يستطيعون فهم هذا الأمر؛ لهذا السبب فإنّ إظهار العقائد الفلسفية لغير العارفين بها وبمفاهيمها أمر في غاية الخطورة.

كما يؤدّي إظهار الآراء الفلسفية لعامّة الناس إلى تضعيف عقائدهم وتزلزلها، أو يثير عندهم موجة من الشكوك في إيمان الفلاسفة على أقلّ التقادير؛ ولهذا لا بدّ من الاجتناب عن نشر الآراء الفلسفية بين عامّة الناس، الذين لا يستطيعون

(١) يجب الالتفات إلى أنّ نظام التربية والتعليم الأفلاطوني قائم على ضوء التقسيم الطبقي للبشر، فهم يقسّمون الجنس البشري إلى طبقات، الحكماء، العمّال، المحاربين، وإنّ الانتقال من طبقة إلى أخرى يعتبر أمراً مستحيلاً، ومن الطبيعي فإنّها تقدّم تعاليم خاصّة لكلّ فرد على ضوء موقعه الإرثي، أمّا في نظام التربية والتعليم الديني الإسلامي، فلا توجد مثل هذه الحدود والموانع التي تؤدّي إلى فقدان آليات التطوّر والتقدّم، والشاهد على هذا ما يقوله الكاتب في آخر المقالة، بأنّه يمكن التأثير حتى على مستوى الفهم عن طريق التعليم بغضّ النظر عما إذا كان التعليم كمّيّاً أو كيفيّاً؛ فالمهم في نظام التعليم الديني هو - بما أن موضوع التعليم هو الدين - أن يكون له مستويات مختلفة وغير متناهية؛ لذلك يجب أن تكون العملية التعليمية حسب مستوى فهم الشخص ومعلوماته السابقة؛ لهذا السبب لا داعي للقفز إلى الخطوة العاشرة أو العشرين قبل أن يكمل الخطوة الأولى؛ لأنّ هذا الأمر يؤدّي إلى إرباك العملية التعليمية؛ بسبب عدم وجود الاستعداد اللازم عند المتعلّم، وأنّ رعاية التدرّج في العملية التعليمية متداولة في جميع العلوم، والفارق أنّ عدم رعاية التدرّج والتسلسل في مراحل التعليم قد يؤدّي إلى الركود، وعلى أسوأ التقادير النفور من ذلك العلم. أمّا في المجال الديني فبالإضافة إلى هذا الأمر قد تؤدّي هذه الخطوة إلى الإعراض عن الدين والبعد عن السعادة؛ لهذا السبب فإنّ من أكثر الجوانب منطقية في تعليم الدين هي رعاية التدرّج في تعليم الدين، وأنّ الاهتمام بهذا الأمر لا يعني التأثّر بالفلسفة التربوية الأفلاطونية.

إدراك هذه الآراء وفهمها؛ من أجل تجنّب آثارها ونتائجها السلبية. وقد ابتلي أغلب الفلاسفة بمثل ما ابتلي به سقراط من المصير المأساوي، فحكم عليه بالإعدام بسبب طرح آرائه وعقائده علانية بين الناس؛ حيث إنّ كلّ شخص كان يستطيع أن يطّلع بسهولة على هذه الآراء، ولم يكونوا يفهمون كيفية التوفيق بين هذه الآراء وبين الدين.

وأمّا أرسطو، فيختلف في الأسلوب مع أستاذه (سقراط)، فقد كان يطرح أفكاره في قالب فنّي معقّد؛ لهذا السبب لم يتعرّض إلى مخاطر أبداً؛ لأنّ الفلاسفة وحدهم كانوا يستطيعون إدراك ما كان يقول.

التلازم بين التربية والتعليم وتنوّع الفكر:

إنّ الدقّة في التخطيط للتربية والتعليم تستوجب مراعاة انسجامها مع المستوى الفكري للأفراد؛ بحيث تبتعد عن النظر إلى الأفراد بمنظار واحد، وإنّ الله – سبحانه وتعالى – خلق الناس متفاوتين، وعلى المتخصّصين في المجال التربوي أن يأخذوا هذا الأمر بنظر الاعتبار؛ ذلك في التخطيط للبرامج الدراسية. فالنقطة الأساس بالنسبة إلى التمايز في التربية والتعليم الإسلاميين هي أن يُتجنّب أيّ نوع من أنواع التدخّل في حصول الطبقات الاجتماعية المختلفة على المعرفة؛ ولهذا السبب، فإنّ عامّة المؤمنين الذين يكون إيمانهم بسيطاً (غير معتمد على أسس علمية)، عليهم أن يحتفظوا بطريقتهم الخاصّة في الحياة التي تتناسب مع مستوى إيمانهم، فلا يجوز للفلاسفة أن يطرحوا بين الناس الإشكالات الواردة في توجيه المعايير الأخلاقية المتّخذة من قبل الله –تعالى–؛ لأنّ عامّة المؤمنين سوف يصابون بصدمة، وليس من المستبعد أن يبتعدوا عن سلوكيّاتهم التي اعتادوا عليها.

ومن الطبيعي أنّ مثل هذا التصرّف عمل غير صحيح. وواضح أنّ هذا لا يعني ترك الناس بعيدين عن الحقّ والحقيقة؛ بحجّة تصنيف الذين يخضعون للتربية؛ فإنّ الحصول على الحقيقة ممكن للجميع، لكن لا بدّ من استخدام

أساليب مختلفة للحصول على المعرفة، وهذا التغيير والإصلاح يمكن أن يكون كمّيّاً أكثر ممّا هو كيفي، فعلى سبيل المثال: إنّ عامّة المؤمنين يمكن أن يرفعوا مستوى فهمهم وإدراكهم عن طريق تلاوة القرآن الكريم والتأمّل في آياته، في حين أنّ المتكلّم يمكن أن يغيّر مستوى فهمه؛ من خلال السيطرة على الأشكال المختلفة لحلّ مسألة شرعية خاصّة، ولا يمكن لعامّة المؤمنين الوصول إلى هذا الهدف بمثل هذه الأساليب. لكنّ هذا الأمر لا يعني ترك ما يستطيعون فهمه وإدراكه، ومن الممكن أن يأتي زمان يمكّنهم من الاستجابة إلى طرق كانت متناسبة مع مستوياتهم في زمن ما، وهذه الظاهرة يمكن أن تكون قرينة على استعدادهم للحركة باتّجاه أعلى، والحصول على مستوى فكري أرقى.

ومن الخصائص المميّزة لأكثر الكتابات العربية التي تتناول المواضيع النظرية هي أن تبدأ بوصف المخاطب الذي يجب أن يستفيد منها؛ فالكاتب يفترض أنّ المخاطب قد حاز على مستوى معيّن من الفهم؛ لهذا لا يرون من الواجب عليهم الإجابة على الأسئلة المطروحة عليهم. ولعلّ الهدف من هذا الموضوع يكمن في رفع المخاطب إلى مستوى أعلى، وإعداده للحصول على حلول للأسئلة المطروحة من قِبَله. وقبل الوصول إلى هذا النوع من التفكير لا بدّ من تنفيذ التعاليم السابقة بشكل صحيح.

إنّ هذا النوع من البرامج الدراسية يعتمد على الفكرة القائلة بأنّ موضوعة التربية والتعليم في الثقافة الإسلامية تتكامل وتتطوّر في ما إذا كانت قائمة على أساس اعتماد نظام وترتيب في سلّم المعرفة.

الأسلوب الديني وأثره في التربية والتعليم:

يعتبر الإسلام المعارف الدينية من أهمّ أنواع العلوم والمعارف، وهذه المسألة لها تأثير كبير على التعليم والتربية في الدول الإسلامية، ولا سيما في الشرق الأوسط؛ حيث يتمّ التأكيد هنا على الاختلاف بين التعليم الديني وغيره

(Secular Instruction)، وإن كان استخدام مناهج التعليم الديني وأساليبه في دراسة العلوم غير الدينية شائعة جداً. حيث إنّ من أفضل الأساليب في التعليم الديني هي شرح المتون وحفظها عن ظهر قلب، وهذه الطريقة كانت شائعة حتى في المدارس غير الدينية. ولا يمكن للطالب أن يناقش المعلّم تحت ظلّ هذه المناهج؛ لأنّ وظيفة المعلّم هي نقل العلوم فقط، وأيّ محاولة من هذا القبيل تُعدّ نقداً للإسلام نفسه؛ لهذا السبب نجد أنّ المتعلّمين عادة ما يُعرضون عن طرح الأسئلة والإشكاليات على المعلّم[1].

وقد امتدّت هذه الطريقة ـ في الغالب ـ في مجال دراسة العلوم غير الدينية؛ بحيث تم تشجيع طريقة التعليم الببغائي، ولم يفسح المجال أمام الطالب للمشاركة في تعيين المسار التعليمي، وكذلك فإن الفكرة التي تذهب إلى أن الطالب يمتلك قابليات كبيرة، ويستطيع أن يكون مؤثراً في مسار التعلم أصبح أمراً غير مألوف؛ فدور الطالب هو أن يسمع ويتعلم ويكرّر ما سمع، وعندما يسأل

(١) بالرغم من أنّ طرح الأسئلة والإشكالات لا يشمل بالضرورة وجود أحكام مسبقة، لكنّ حصول نزاع وجدل فكري في المجالات الدينية أمر مرغوب ومطلوب أيضاً، وبصورة عامّة فإنّه يمكن ممارسة البحث في كل نوع من أنواع المعارف والعلوم، بعد التسليم بمجموعة من الأصول والأحكام التي تحصل بالتجربة في العلوم التجريبية، أو العقل في العلوم العقلية، أو الوحي في المسائل الدينية. فدون وجود مشتركات عامّة لا يمكن بحث المسائل المجهولة، وتوقّع نتيجة من النقاش؛ مع وجود الفارق وهو أنّه لا يمكن أن تقع الأمور القطعية الوجدانية في دائرة السؤال والجواب من حيث السلب والإيجاب بواسطة التمسّك بدليل العقل، وإن كانت هذه الأمور تقع في دائرة السؤال، والجواب أيضاً من حيث توجيهها وكيفيتها. ومن البديهي أنّ الكثير من البحوث الأخرى في التعاليم الدينية التي ترجع إلى استنباط المجتهد من الدين ـ خاصّة في مجال المباحث الاجتهادية ـ، تقع تحت دائرة الحوار والنقاش؛ لهذا السبب فإنّ التصوّر القائل بأنّ كلّ سؤال ونقد في المسائل الدينية يرجع إلى نقد الدين نفسه هو أمر غير صحيح، والشاهد على ذلك هو تطوّر المعارف الدينية في دائرة علوم القرآن، والتفسير، والفقه، والفلسفة الإسلامية،... ومن جانب آخر، لا بدّ من الإشارة أولاً: إلى أنّ تقسيم المتعلّمين إلى مستويات مختلفة من حيث السنّ، يعتبر أمراً مهماً في اختيار موضوع التعليم؛ لأنّ التعليم إذا كان خاصّاً بالأطفال والمراهقين يجب أن يُركّز على محورية المعلّم في نقل العلوم الدينية، أمّا إذا كان موجّهاً لمستويات أعلى فلا بدّ من تشجيع الفكر الانتقادي عند المتعلّم؛ لهذا السبب فإنّ النقاش والنقد في هذه المرحلة لا بدّ أن يكون في مستوى أعلى ممّا هو عليه في المرحلة السابقة. وثانياً: إنّ التعليم التدريجي بالنسبة للكبار يحلّ الكثير من مسائلهم ومشاكلهم؛ لهذا السبب فإنّ هذا الأمر يصدهم عن طرح أسئلة وإشكالات قد يأتي حلها في مراحل أعلى وبصورة طبيعية، وعلى الرغم من حاكمية ثقافة التدرّج في التعليم الديني، نشاهد- مع ذلك - هناك جدل فكري كثير في الحوزات العلمية حول الكثير من المسائل الدينية بين الأستاذ والطالب، وهذا شاهد واضح على خطأ الكاتب المحترم، ولعلّ المصدر الوحيد الذي استند عليه الكاتب هو استقراؤه للوضع الديني في بعض المدارس السنّيّة.

يجيب، ولم يكن للمناهج. الدراسية الأخرى (المناهج التقدمية)[١] إلا دور ثانوي[٢].

ولا بد من التأكيد مرّة أخرى أنّ الأسلوب الديني في التربية ترك أثراً بارزاً في مجال العلوم غير الدينية، فإذا ما كان المعلم هو الذي يمتلك الحقيقة، فلا داعي لأن يسعى من أجل تطوير قابليات الطلاب وتنمية قدرة الإبداع والابتكار لديهم، أو رفع مستواهم؛ لأن هذا الأمر يؤدي إلى تضعيف الحقيقة وتحريفها، حيث لم تكن وظيفة المعلّم إلا نقلها فقط[٣].

إنّ العمل الوحيد الذي يمكن القيام به من قبل الجهّال هو أن يقوموا بدور الأواني الخالية؛ أي يجب على هؤلاء الانتظار حتى تملأ هذه الأواني من قِبَل من لديه القدرة على ذلك، فما هو مهمّ في هذا المجال هو أنّه يجب الاهتمام بطريقة التعليم وأسلوبه أكثر من الاهتمام بمحتواه.

(١) يُراد من التقدمية (Progressive): هو المصطلح الذي استخدامه (جون ديوي) في التعليم والتربية.

(٢) بنظرة بسيطة إلى طريقة التعليم والتربية الدينية، التي مجالها الرئيس الحوزات العلمية، نلاحظ أنّ الكثير من طرق التربية التي يكون محورها الطالب وخصائصه الشخصية كان لها رواج كثير؛ حيث إنّ الكثير من الجامعات المتطوّرة لا تزال تأخذ بهذه الأساليب أمثال: انتخاب الأستاذ بطريقة حرّة، والمباحثة، وتعيين ساعة الدرس؛ حيث تتناسب مع وضعية الطالب، والمطالعة المسبقة، واستخدام الطرق والأساليب المتنوّعة في البحوث النظرية؛ من أجل فهم المطالب العلمية وإدراكها.

ومن البديهي أنّ أمثال هذه الطرق والمميّزات ليست متداولة في الحوزات العلمية منذ القدم فقط، بل تعتبر من مميّزاتها الرئيسة إلى يومنا هذا، ومن جهة أخرى لا بدّ من الالتفات إلى أنّ المواضيع النظرية التي كثيراً ما يكون البحث فيها في الكتب والمكتبات تختلف عن المواضيع التطبيقية وغير النظرية، وهذا لا يعني عدم الالتفات إلى نفسية معلومات الطلاب ومستواها في نظام التعليم والتربية الدينية.

إنّ دور الطالب في تعيين مستقبله العلمي أكثر ممّا هو عليه في جامعات العالم بأضعاف، فاستخدام بعض الطرق، من قبيل: تقرير الدرس، والمباحثة، والمطالعة المسبقة، ومطالعة الكتب المشابهة، وتدريس المواضيع التي تعلّمها، ونقد الأستاذ ومناقشته؛ هي من الطرق الممتازة التي تستخدمها الحوزات العلمية؛ لتحكيم بنية الطالب العلمية.

أمّا السبب الأساس في اللجوء إلى الطرق النظرية في المجالات التطبيقية والعملية كالفيزياء وغيرها في المجتمع الإسلامي يعود إلى فقدان الإمكانات المادية، وعدم وجود الأرضية المناسبة في مراكز التعليم، وليس تقليد طريقة التعليم الديني.

(٣) من الواضح أنّ هذا التصوّر الذي يرى أنّ المعلّم يملك الحقيقة في التربية الدينية لا يتّفق مع الواقع الموجود، نعم إنّ المعلّم يتبنّى الحقيقة في نقل التعاليم الدينية، كما هو الحال في معلّم الفيزياء و...، لكنّ هذا التبنّي للحقيقة لا يعني نفي نشاطات الطالب الذهنية والعقلية، وعدم الاعتراف بها، والشاهد على ذلك أنّ التعاليم الدينية الإسلامية كثيراً ما تتبنّى الأسلوب العقلي والفكري في معالجة الكثير من القضايا، فقد أكّد القرآن الكريم في آيات متعدّدة على اتّباع هذا الأسلوب، ولا يخفى على أحد أنّ الدين التي تقوم دعوته العالمية على أساس التفكير والتدبّر لا يعجز أبداً عن استخدام هذا الأسلوب في المجال التعليمي، وهو من أنسب المجالات لإعمال الفكر.

اهتمّ الإسلام اهتماماً كبيراً بالتعليم، كما جاء في الأحاديث «**اطلبوا العلم ولو بالصين**»[١]، «**اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد**»[٢]، «**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**»[٣]، إنّ هذه الأحاديث جميعها تتضمّن مفاهيم مهمّة جداً؛ فالحديث الأول يدلّ على الخروج من إطار الثقافة المحلّية إلى الثقافة العالمية؛ من أجل كسب العلم الضروري واللازم، والحديث الأخير يدلّ على نوع من الوجوب لطلب العلم من قبل الرجال والنساء، وإن كان هذا الحديث لم يُطبَّق على المرأة في العالم الإسلامي.

فالموضوع المحوري في التربية والتعليم ليس في أن يصبح العلم هدفاً وغاية، بل هو في كيفية اكتسابه، فالعلم اليوم يعتبر أمراً واقعياً وعينياً، أمّا التصورات الفردية للطالب، فليست لها أهمّيّة كبيرة؛ حيث إنّ استقلالية الطالب وتجسير العلاقة بينه وبين الأستاذ على أساس الحوار أمور ليس لها معنى. والثابت أنّ أغلب أهداف التربية والتعليم في المؤسّسات التعليمية التي ترى نفسها حرّة لم تتحقّق بعد، لكنّها أرست نوعاً جديداً من التربية والتعليم، يُتوقَّع أن يكون له تأثير عملي كبير في المجالات التربوية.

(١) بحار الأنوار، م.س،ج١، ص١٧٧.
(٢) تفسير القمي، م.س، ج٢، ص٤٠١.
(٣) بحار الأنوار، م.س، ج٢، ص٣١.

إنّ العملية التربوية في النسيج الإسلامي ليس لها دور في تحقيق هذه الأهداف، وما يمكن أن نطلق عليه هدفاً، هو في الواقع أمور محدودة جداً، تتمثّل في تربية الرجال والنساء على طريقة معيّنة[1].

ضوابط التربية الإسلامية:

إنّ الإجابة على هذا السؤال ليست بالأمر اليسير؛ لأنّها تتوقّف على نوعية الشخص وطبيعته. والجدير بالذكر هو أنّ الاختلاف بين التعليم الديني وغير الديني يكمن في أنّ المراد من التربية الدينية أكثر من كونها مجرّد مجموعة من المعلومات فقط، بل هي تربية الأفراد على أن يكونوا ملتزمين بعقيدة خاصّة، ومن الواضح أنّ هذا الأمر ينطبق على التعليم والتربية الإسلامية أيضاً.

ويخالف المسلمون ـ في الغالب ـ، التعليم والتربية التعدّدية؛ أي التي تعتبر الإسلام ديناً من سائر الأديان الأخرى. فهم في الحقيقة يريدون من نظام التربية والتعليم أن يعطي الأولوية للإسلام على سائر الأديان، والنظر إلى المذاهب

(١) الموضوع الأساس الذي يحاول الكاتب المحترم طرحه في هذه المقالة هو أنّ التعليم والتربية الإسلامية تتّبع طريقة معيّنة، وأنّ هذه النتيجة أدّت إلى تعميم هذه الطريقة إلى سائر المجالات العلمية الأخرى، وهذا الأمر لم يؤدِّ إلى تطوير التعليم والإنتاج العلمي فقط، بل أدّى إلى نوع من التخلّف عن قافلة العلم البشري. وإنّ الذي يبدو من كلام الكاتب أنّ الأساليب والمناهج التعليمية المستخدمة في الدين أثّرت على سائر المجالات الأخرى، وربما كانت هذه الطريقة غير مناسبة للمواضيع العلمية الأخرى، من قبيل: الفيزياء والكيمياء و...، لهذا السبب واجه المسلمون الركود والتخلّف في هذه المجالات. ويمكن تلخيص ادّعاء الكاتب ـ حسب الظاهر ـ بالآتي:

أ- إنّ منهج التعليم والتربية الإسلامية منهج مغلق محدود غير انتقادي.

ب- إنّ طريقة التعليم والتربية الإسلامية بصفتها الطريقة المقبولة والمحورية تعدّت إلى سائر المجالات والمواضيع العلمية الأخرى.

ج- عدم انسجام الطريقة المذكورة مع العلوم غير الدينية؛ أدّى إلى حصول نواقص وضعف في الإنتاج العلمي في العالم الإسلامي.

ومن خلال قراءة تاريخ التربية والتعليم في العالم الإسلامي يتبيّن لنا أنّ جميع هذه الادّعاءات باطلة ومرفوضة – كما ذكرنا آنفاً –؛ فقد أكّد القرآن الكريم على تربية الروح النقدية والتفكير والتأمل وتشجيعها، وهي شائعة جدّاً في المدارس والحوزات العلمية، ولا سيّما الشيعية منها. وهذه المسألة ـ من بادئ الأمر ـ، كانت شائعة؛ حتى في تعامل الأئمة عليهم السلام، مع الملحدين والمنكرين، والحوار معهم حول المواضيع الكلامية والفقهية وغيرهما، فإذاً، لا يمكن إرجاع التخلّف وعدم التطوّر في العلوم والتقنية إلى نفوذ مناهج التعليم الدينية إلى سائر العلوم، والذي يظهر من خلال البحث التاريخي وجود عوامل أخرى كانت هي السبب في مثل هذه الأمور، من قبيل: الحروب الطائفية التي أدّت إلى تضعيف السلطة المركزية، واستبداد الملوك وعمالتهم للحكومات الأجنبية في الفترات المتأخّرة، كانت من أهمّ الأسباب في تخلّفنا عن قافلة العلم والمعرفة.

وهناك مسألة أخرى جديرة بالبيان، وهي أنّ مناهج التعليم الدينية في زمن الفورة الحضارية الإسلامية لم تؤثّر سلباً – بل إيجاباً – في النهضة العلمية الكبيرة وقتها. فلماذا تعكس الآن؟!

الأخرى من زاوية إسلامية، ويرغب المسلمون باعتبارهم جزءاً من المجتمع أن تتلقّى العادات والتقاليد الإسلامية بصورة طبيعية، وأن يضع المعنيّون بأمر التربية تقوية القيم الدينية في برامجهم.

تأثير التربية الدينية على البرامج التعليمية للمدارس:

ما هي آثار التربية والتعليم الإسلامي على سائر البرامج التعليمية الرسمية في المدارس؟ هل إنّ هذا النوع من التربية والتعليم أدّى إلى حذف بعض البرامج الأخرى، أو أنّه أكّد على برامج خاصّة؟

في الإجابة على هذا السؤال نستطيع أن نقول: إنّ البرامج الرسمية في المدارس الإسلامية في غير المجالات الدينية ينبغي أن تكون مشابهة للبرامج غير الدينية في سائر المدارس، لكنّ البرنامج الدراسي الخفيّ لا بدّ أن يكون مختلفاً؛ أي الجوّ الحاكم على المدارس، علاقة الطلاب بالأساتذة، اللغة المستخدمة بينهم (لغة التحاور بينهم)، وكلّ أمر من هذا القبيل يجب أن يكون على ضوء قوانين سلوكية مقبولة من قبل الإسلام، وفي هذه الحالة يمكن للطلاب أن ينموا في المجتمع الإسلامي، ويتطوّر فهمهم ورغبتهم بهذا النمط من الحياة.

إنّ دراسة الآثار الكلاسيكية والإسلامية في القرون الوسطى للإسلام تكشف عن أنّه لم تكن هناك أيّ دراسة مستقلّة ومتخصّصة في مجال فلسفة التعليم والتربية، غير الدراسات الفلسفية العامّة والفقهية والتاريخية[1]، فكثير من المؤلّفين قدّموا نصائح في مجال التربية الأخلاقية، وفي بعض الأحيان تعرّضوا إلى بعض مستلزمات التدريس، أو التربية في إطار المدرسة أو الكلّيّة. وبصورة

(١) من خلال قراءة التاريخ الإسلامي يتبيّن لنا أنّ المباحث الفلسفية في مجال التعليم والتربية الدينية كانت موضع اهتمام فائق من قبل المسلمين، خصوصاً لجهة أهداف التعليم؛ حيث إنّ التعليم يجب أن يُوصِل الإنسان إلى الله -سبحانه وتعالى-، وتأثير هذا الهدف على كيفية التعليم، وكيفية التعامل بين الطالب والمعلم، والوقت الذي يبدأ فيه التعليم وطرقه، بل حتى نمط حياة المعلّم والطالب، وموارد أخرى كثيرة مطروحة بصورة مفصّلة، ويمكن ذكر كتاب (منية المريد) للشهيد الثاني؛ باعتباره أحد أبرز نموذج على هذه الكتابات. وبعبارة أخرى: إنّ الكتب الأخلاقية للمسلمين مملوءة بالمباحث الفلسفية في التعليم الديني، حيث تعرض هذه الطريقة الفلسفية بصورة عملية، في قالب يتناسب مع ظروفها.

عامّة اهتمّ الكتّاب المسلمون بالعملية المدرسية من منظار فلسفي، ولم تكن لهم خطوات مؤثّرة وهادفة في العمل المؤسساتي التعليمي العالي، الذي كان له دور مؤثّر في تربية الباحثين وديمومة التحقيق.

إنّ أساس التعليم والتربية في المرحلة الابتدائية كان دينياً، وإنّ المعلّمين وأولياء الطلاب مكلّفون بنقل الأصول الاعتقادية والمعرفية للطلاب في هذه الفترة من التعليم؛ لأنّ هذه الأصول تمنع من الفساد والانحراف، وتساعد على نيل الشرف والعفّة، أمّا سائر العلوم الأخرى، فيمكن الاستفادة منها أيضاً، لكنّ التطرّق لها لا يُعدّ من التكاليف والوظائف الدينية في التربية الدينية.

إنّ المهمّ في التربية الدينية هو طريقة الحياة التي يجب أن ينمو في ظلّها الطلاب والمتعلّمون، وهي الهدف الحقيقي للتربية، ويمكن التطرق للعلوم غير الدينية، لكن ليس على حساب الدين؛ لأنّه يجب الأخذ بنظر الاعتبار دائماً بأنّ هناك فوارق بين العلوم الدينية وسائر العلوم.

وكما لاحظنا إنّ شكل التعليم والتربية ـ في الغالب ـ، لا يفرّق بين العلم والمعرفة التي لا تعير أهمّيّة للنقد والإبداع والعلوم الأخرى المفضّلة والمطلوبة في الرؤية العلمانية، لكنّ جوهر التعليم والتربية الإسلامية تكمن في إيجاد التمايز بين التعاليم الدينية وغير الدينية. ولشديد الأسف فإنّ هذا الأمر ـ في الغالب ـ، سبَّب نوعاً من الإبهام بين الاثنين في مقام التعليم والتربية الدينية. علماً بأنّ هذا الإبهام ـ إلى حدود معينة ـ، يعتبر أمراً طبيعياً؛ لأنّ هناك بعض الجوانب التي يجب أن يُؤكَّد عليها في التربية في العالم الإسلامي، هي عبارة عن رأي الإسلام باعتباره واقعاً موجوداً.

إنّ انعكاس مثل هذا الرأي يُعدّ نوعاً من أنواع الانتقاد لفكرة تقسيم العلوم وتبويبها؛ فعلى سبيل المثال يمكن أن يرى الطلاب أنّ العلوم الطبيعية تصف الحقائق بصورة دقيقة وملموسة، بل إنّهم قد يذهبون إلى أنّ هذه العلوم يمكن أن تعطي أشكالاً وصوراً من المعرفة أكثر اطمئناناً بالقياس إلى الدين والمتطلّبات الأخلاقية التي لها جانب شخصي قابل للتغيير بمرور الزمن، وربما يتمّ التسليم ببعض هذه الحقائق بطريقة غير استدلالية.

إنّ هذا الرأي يمكن أن ينتهي إلى العقم في فهم الجانب الروحي للواقع والحقيقة، ويؤدّي إلى أن ننظر إلى العالم بوصفه أداةً للوصول إلى مآربنا، لا حقيقة ميتافيزيقية يكون وجودنا جزءاً منها فقط.

من زاوية إسلامية إذا كانت التقنية هي الهدف الأساس من وضع برامج التعليم، فإنّها من المؤكّد سوف تُبتلى بنوع من الانحراف، وإن خطت بعض الخطوات في بعض المجالات العلمية، فالعالم الذي نعيش فيه من زاوية دينية أعمق بكثير ممّا نراه في الظاهر.

خاتمة:

إنّ التعليم الديني والتربية إذا استطاعا أن يعكسا هذا المعنى، ففي تلك الحالة يمكن أن تعطيا صورة دقيقة عن العالم. وإذا ما أردنا أن نفهم حقيقة العالم، فإنّنا نحتاج إلى رؤية شاملة تمكّننا من الوصول إلى ما وراء الصورة الظاهرية لهذا العالم؛ فالمعارف غير الدينية إذا ما ادّعت أنّها قادرة على الوصول إلى جميع الحقائق فسوف تكون مضلّلة؛ ولهذا فإنّ أيّ جهد للتربية يتلخّص بحدود المصطلحات العلمية هو أمر غير مقبول ومرفوض.

وعلى هذا المنوال، فإذا ما ابتعد التعليم الديني عن غير الديني، فإنّه قد يؤدّي إلى وقوع بعض الأفراد في أخطاء فادحة في مجال تقويم كيفية العلاقة بين المعرفة الدينية وغير الدينية؛ فالمسلم بسبب إيمانه يعرف جواب الأسئلة الأساسية للحياة؛ ولهذا تجده يضع المعرفة غير الدينية في محلّها الصحيح، وعلى هذا الأساس دخلت المواضيع الأساسية في الفلسفة ميدان التربية الإسلامية؛ فعلى سبيل المثال كيف نستطيع ـ اليوم ـ، أن نواجه ونقف موقفاً صحيحاً من الحداثة والتجدّد، دون أن نفقد إيماننا.

إنّ هذه المشكلة كانت مطروحة في الفكر الإسلامي منذ القدم، وما زالت تطرح بين الآونة والأخرى، حيث أدّت إلى بروز مخاوف جديّة في إيجاد المصالحة بين الدين والحياة العملية؛ من خلال جهاز التعليم والتربية.